الجزء السادس عشر

قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

فلا تصاحبنى : أى فلا تجعلنى صاحبا لك ، بلغت من لدنى عذرا : أى وجدت عذرا من قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأبلة أو الناصرة ، ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، أن يضيفوهما : أى ينزلوهما أضيافا ؛ يقال ضافه إذا كان له ضيفا ، وأضافه وضيّفه : أنزله لديه ضيفا ؛ وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال ، جدارا:

أى حائطا ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

يريد الرمح صدر أبى بَرَاء ويعدل عن دماء بنى عقيل

أقامه : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أى مامصيره .

المعنى الجملى

لايزال الكلام متصلا فى قصص موسى والخضر عليهما السلام ، ولكن لوحظ فى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزائه الثلاثين جانب اللفظ لاجانب المعنى ، ولذا تجد نهاية جزء و بداءة آخر حيث لايزال الكلام فى معنى واحد لم يتم بعد كما هنا .

الإيضاح

(قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) زاد كلمة لك على سابقه لتشديد العتاب على رفض الوصية ، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة .

قال البغوى : روى أن يوشع كان يقول لموسى : اذكر العهد الذى أنت عليه .

(قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) أى قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شىء بعدها من عجيب أفعالك التى أشاهدها وطلبت منك بيان حكمته ، فضلا عن المناقشة والاعتراض عليه ، فلا تجعلنى لك صاحبا .

(قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد بلغت الغاية التى تعذر بسببها فى فراقى ، إذ خالفتك مرة بعد أخرى ، وهذا كلام نادم أشد الندامة قد اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

وقد روى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة

(حياء وإشفاق من الذم) فقال (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا)».

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أى فانطلق الخضر وموسى بعد المرتين الأوليين حتى وصلا إلى قرية طلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا أن يضيفوهما، وفى الحديث «كانوا أهل قرية لئاما بخلاء» وفى قوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون أن يقول فأبوا أن يطعموهما - زيادة تشنيع عليهم ووصفهم بالدناءة والشح، فإن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب، ولكن لايرد الغريب المستضيف إلا لئيم، ألا تراهم يقولون فى أهاجيهم: فلان يطرد الضيف: وعن قتادة شر القُرى التى لايضاف فيها، ولا يعرف لابن السبيل حقه.

(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه) أى فوجدا فى القرية حائطا مائلا مشرفا على السقوط فمسحه بيده فقام واستوى، وكان ذلك من معجزاته.

(قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى قال موسى ذلك تحريضا للخضر وحثا له على أخذ الجُعْل والأجر على فعله، لإنفاقه فى ثمن الطعام والشراب وسائر مهامّ المعيشة.

(قال هذا فراق بينى وبينك) أى قال الخضر عليه السلام لموسى: هذا الاعتراض المتوالى منك هو سبب الفراق بينى وبينك على حسب ما شرطت على نفسك، وإنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين، لأن ظاهرهما منكر فكان معذورا دون هذا، إذ لاينكر الإحسان إلى المسىء بل يحمد.

(سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) أى سأخبرك بعاقبة هذه الأفعال التى صدرت منى، وهى: خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ومآلها خلاص السفينة من اليد الغاصبة، وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز ببدل حسن، واستخراج اليتيمين للكنز.

وفى قوله : (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) دون أن يقول بتأويل ما فعلت ، أو بتأويل ما رأيت ونحوهما ـ تعريض به عليه السلام وعتاب له .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) .

شرح المفردات

المساكين : واحدهم مسكين ؛ وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، يعملون فى البحر ، أى يؤاجرون ويكتسبون ، أعيبها : أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، وراءهم : أى أمامهم ؛ وهو لفظ يستعمل فى الشىء وضده كما قال :

أليس ورائى أن أدب على العصا فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم .

خشينا : أى خفنا ، أن يرهقهما : أى يحملهما ، طغيانا : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، زكاة : أى طهارة من الذنوب ، رحما : أى رحمة كالكثر والكثرة ، عن أمرى : أى عن رأيى واجتهادى ، مالم تسطع : أى تستطع ماضيه استطاع الذى أصله استطاع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأمور التى رآها موسى عليه السلام حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لايستطيع معه صبرا ، وكان من جَرّاء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته ـ أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر» .

وأحكام هـذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر ، وهذه لايطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده ، ومن ثم اعترض موسى على ما رأى ولم يعلم ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ، ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هـذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث — إنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم ، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضررا من سقوطه ، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر فى ذلك — إن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقها فى أنفسها ، وهذا لايمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسمية ، ومن ثم قال فى صفة علمه : « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال

المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليها فى الواقع .

الإيضاح

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى أما فعلى ما فعلت بالسفينة ، فلأنها كانت لقوم ضعفاء لايقدرون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها، فأردت أن أعيبها بالخرق الذى خرقته، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصبا ، ويدع كل معيبة ، فعبتها لأرده عنها .

وخلاصة ذلك — إن السفينة كانت لقوم مساكين عجزة يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون ويعجزون عن دفعه من غصب ملك قدامهم ، من عادته غصب السفن الصالحة .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى وأما الغلام فإنه كان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخفنا أن يحملهما حبه على متابعته على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فليرضَ امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ، وفى الحديث « لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إنا علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه فى دينه لفرط حبهما له .

(فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) أى قال هذا العالم :

أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولدا يكون خيرا من هذا الولد دينا وصلاحا وأقرب عطفا ورحمة بأبويه وبرا بهما وشفقة عليهما .

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) أى إن الداعى إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحا ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لصلاح أبيهما ، فأمرنى بإقامة الجدار لتلك المصالح ؛ إذ لو سقط ذلك لضاع الكنز وقد كان مشرفا على السقوط .

(وما فعلته عن أمرى) أى وما فعلت الذى رأيتنى أفعله عن رأيى ومن تلقاء نفسى ، بل فعلته عن أمر الله إياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحى والنص القاطع .

(ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى هذا الذى ذكرت لك من الأسباب التى من أجلها فعلت الأفعال التى استنكرتها ، هو بيان ما تئول إليه الأفعال التى ضقت بها ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداء .

تنبيـــه

لذكر هذه القصة فى الكتاب الكريم فوائد :

(١) ألا يُعْجَب المرء بعلمه ، وألا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه ، فلعل فيه سرا لا يعرفه .

(٢) إن فيها تأديبا لنبيه بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزءوا به وبكتابه ، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف فى الدنيا واستحقاقهم من الله فى الآخرة الخزى والعذاب الدائم .

(٣) إن ما حدث فيها يجرى مثله كل يوم فى هذه الحياة ، ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لا ذنب له يشبه الطاعون الذى يهلك الأمم ويفتك بها فتكا ذريعا ،

والبهائم التى تفتك بها السباع أو تأكلها الناس ـ ولو تأمل الناس حكمة ذلك لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام أونحوها ولم يمت منهم أحد لضاقت بهم الأرض ، ولماتوا جوعا ، ولأكل الابن أباه ، ولأصبحت الأرض منتنة قذرة ، ولهلك الناس جميعا ، وأن أكل كواسر الطير لصغارها ليخلو الجو والأرض من الحيوان المزدحمة ، ولولا ذلك لأصبحت الأرض مضرة بالناس والحيوان ، فاقتناصها رحمة ونعمة على الناس !

وأن خرق السفينة التى هى لمساكين أشبه بموت بقرة فلاح فقير بجانبه رجل غنى لم تصب بقرته بسوء ، وذلك إنما يكون لحكم لا يعلمها إلا الله ، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفا لا يحزنه شىء ، وأن الغنى إذا لم يهذب نفسه تكون روحه مجذوبة إلى هذا العالم متطلعة إلى ما فيه ، فيصير فى حسرة حين موته .

وأن ذكر الجدار وإقامته تشيران إلى كل من يرى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه ، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشحاء ليسوا أهلا للإكرام .

وخلاصة ما قاله الخضر : إن هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس ، بل هى من أعمال الله ، وإنما كنت واسطة فيها ، فهى نماذج لفعل ربكم فى هذه الحياة .

قصص ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وسدهما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) .

شرح المفردات

ذكرا : أى نبأ مذكورا وهو القرآن ، ومكنه ومكن له ، كنصحه ونصح له : أى مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ، سببا : أى طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حمئة : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود ، حسنا : أى أمرا ذا حسن ، نكرا : أى منكرا فظيعا ، الحسنى : أى المثوبة الحسنى ، يسرا : أى سهلا ميسرا غير شاق ، سترا : أى بناء وكانوا إذا طلعت

الشمس تغوّروا فى المياه و إذا غربت خرجوا ، خبرا: أى علما يتعلق بظواهره وخفاياه، السدين : أى الجبلين ، يفقهون : يفهمون ، خرجا : أى جُعْلا من أموالنا على سبيل التبرع ، والخراج : ما لزمك أداؤه ، بقوة : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس ، ردما : أى حاجزا حصينا ، والردم : أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم : أى فيه رقاع فوق رقاع ، وزبر : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة ، والصدفين : واحدها صدف ، وهو جانب الجبل ، قطرا : أى نحاسا مذابا وقيل رَصاصا مذابا ، أن يظهروه : أى أن يعلوه و يرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته ، رحمة : أى أثر رحمة ، دكاء : أى مثل دكاء وهى الناقة لاسنام لها ؛ والمراد بها الأرض المستوية ، حقا : أى ثابتا واقعا لامحالة ، يموج : أى يضطرب اضطراب البحر ، والصور : قرن ينفخ فيه .

المعنى الجملى

هذه القصة رابعة ثلاثة من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طوّاف فى الأرض ، وعن فتية لايدرى ماصنعوا، وعن الروح؟ فنزلت سورة الكهف .

وقبل الشروع فى تفسير هذه الآيات الكريمة لابد من بيان أمور تمس إليها الحاجة ، مَن ذو القرنين ؟ من يأجوج ومأجوج ؟ أين سد ذى القرنين ؟ .

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية، وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى

على ملك دارا وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مصر و بنى الاسكندرية ؛ والدليل على ذلك أنه لم يعرف التاريخ أن أحدا من الملوك دوّخ العالم وسار شرقا وغربا وغلب أكثر المعمور غيره .

و يرى أبو الرَّيْحان البَيْرونى المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه من حِمْيَرَ واسمه أبو بكر بن إفْريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومرّاكش وغيرهما ، و بنى مدينة إفريقيّة فسميت القارة كلها باسمه ، وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها فى عين ذى خُلُب وثأطٍ حَرْمَدِ (١)

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس .

والدليل على أنه حِمْيَرِىّ أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية منها ، وملوكها يسمون التبابعة واحدهم تُبَّع (بضم التاء وتشديد الباء) .

يأجوج ومأجوج

يأجوج : هم التتر ، ومأجوج : هم المغول ، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيرا ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيرا من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوربا

(١) الخلب : الطين . والثأط : الحمأة . والحرمد : الأسود .

فى العهد القديم كأمة التحيت والسِّمْرِيَان والهُون ، وكثيرا ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة ، إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة (تموجين) الذى لقب نفسه (جنكيزخان ـ ملك العالم) بلغة المغول ؛ فخرج فى أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خُوَارزْم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع مالم يسمع بمثله فى التاريخ .

ولما مات جنكيزخان قام مقامه ابنه (أقطاى) وأغار ابن أخيه (باتو) على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولنيا و بلاد المجر وأحرق وخرّب .

و بعد أن مات أقطاى قام مقامه (جالوك) فحارب الروم وألزم ملكها دفع الجزية ثم مات (جالوك) فقام مقامه ابن أخيه (منجو) فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمرا فى طريق الفتح ، فأخضع كيلاى بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيزخان على آسيا كلها وأوربا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشئوا أربع ممالك ، فاختصت أسرة كيلاى بالصين والمغول ، وملك جاغاتاى أخو أقطاى تركستان ، وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمنا طويلا ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس و بغداد حتى بلاد الشام ـ وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف وابن خلدون وابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا .

سدّ ذى القرنين

كانت البلاد التى شرقى البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة (السلاف) وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة (باب الأبواب) أو (دربت) بجبل قوقاف وقد كشفوه فى القرن الحاضر وهو غير السدّ الشهير الذى بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون فى عمالة (بلخ) واسمه (باب الحديد) بمقربة من مدينة (ترمذ) وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ، ومر به أيضا (شاه روخ) وكان فى بطانته العالم الألمانى (سيلد برجر) وذكر السد فى كتابه وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلا فيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند انتهى ملخصا من مقتطف سنة ١٨٨٨ م .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقا ، وهى إحدى المعجزات التى أيدها التاريخ وعلم تقويم البلدان ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» وقد صدق رسوله، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقى خليفة رسمى فى مصر ، وزال ملكهم بتاتا فى حدود الألف ، وتفرق ملك الإسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

الإيضاح

(ويسألونك عن ذى القرنين) أى تسألك قريش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

(قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصا وافيا جامعا لما تريدون ، أعلمنيه ربى وأخبرنى به .

ثم فصل ذلك فقال :

(إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا) أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وآتيناه من كل شىء أراده من مهام ملكه و بسطة سلطانه طريقا يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التى توصله إلى ذلك .

(فأتبع سببا . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقا يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الاطلانطى (المحيط الأطلسى) وجد الشمس تغرب فى عين ذات حمأة وطين أسود .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ بلادا لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مرّاكش ووصل إلى البحر فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون كأنه طين وماء .

(ووجد عندها قوما) أى ووجد عند تلك العين قوما كفارا فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله :

(قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسنا) أى قلنا له بطريق الإلهام إما أن تقتلهم إن هم لم يقروا بوحدانيتى ويذعنوا لك فيما تدعوهم إليه من طاعتى ، و إما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد ، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

(قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أى قال ذو القرنين لبعض خاصته و بطانته : أما من ظلم نفسه فأصرّ على الشرك بربه فسنعذبه بالقتل ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذابا منكرا فى نار جهنم .

(وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) أى وأما من صدّق بالله ووحدانيته وعمل عملا صالحا فى الدارين فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه ، وسنعامله فى الدنيا ما يتيسر لنا

تعليمه مما يقرّبه إلى ربه ، ويلين له قلبه ، ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

(ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ثم قفل راجعا من مغرب الشمس وسلك طريقا موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من المعمور ، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لاتحمل بنيانا ، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم ، وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ووجد قوما لالباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء أو فى سراديب فى الأرض .

(كذلك) أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن وبسطة الملك مما لم يتح لكثير غيره .

(وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شىء منها وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض كما قال « لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — إنه كما وصف وفوق ماوصف بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

(ثم أتبع سببا) أى ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال .

(حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا)

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، (وقد تقدم وصف مكانهما بالتحديد كما رآه السائحون فى القرن الخامس عشر الميلادى) وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون يفهمون كلام أتباعه ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن ونحوى الحال .

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) أى قال مترجموهم: إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب الإفساد (تقدم تحقيق القول فى ذلك) .

(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا ؟) أى فهل تحب أن نجعل لك جُعْلا من أموالنا فتجعل بيننا و بينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا .

وخلاصة ذلك — إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم و بينهم سدا .

(قال ما مكنى فيه ربى خير) أى قال ذو القرنين : إن ما مكننى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ـ خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمان عليه السلام « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ » .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا مادامت قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك — ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

(فأعينونى بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما) أى ولكن ساعدونى بفعلة وصناع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم و بين يأجوج ومأجوج سدا منيعا ، وحاجزا حصينا أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

(آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله

نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل مابين جانبى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى العلو ، قال للعملة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ففعلوا ، وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجا ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد وصار جبلا صلدا .

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته .

(قال هذا رحمة من ربى) أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزا بينهم وبين يأجوج ومأجوج يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فسادا .

(فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

(وكان وعد ربى حقا) أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقا ثابتا لاريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله فعاثوا فى الأرض فسادا من الشرق والغرب وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد كما علمت ذلك فيما سلف .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيز خان أن سلطان خُوَارَزْم السلجوقى قتل رسله وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ ، وكتب إلى السلطان كتابا قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخـــذتم تجارتى ومالى ... أتحركون الفتنة النائمة

وتلبهون الشرور الكامنة ... أو ما جاءكم عن نبيكم ، (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيَّكم ، وعن ظلم الضعيف غويَّكم) أوما بلغكم عنه مرشدوكم ، اتركوا الترك ما تركوكم ، وكيف تؤذون الجار ، وتسيئون الجوار . ونبيكم قد أوصى به ... ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصايای إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعی الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ولينسلنّ عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب اه ملخصا .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبی سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصبعه الابهام والتی تليها ، قالت زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ، فقال نعم إذا كثر الخبث » .

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره فی القرن السابع الهجرى ، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا وقد عثر على آثاره كما علمت فيما سلف.

(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فی بعض) أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فی الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فی سورة الأنبياء : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فی النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى ، كما تقدم نقلا عن مؤرخی العرب والإفرنج .

كل هذا قبل النفخ فی الصور بزمن مجهول غير معلوم .

(ونفخ فی الصور فجمعناهم جمعا) أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فی الصور وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقوله: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) .

شرح المفردات

عرضنا : أى أظهرنا وأبرزنا ، غطاء : أى غشاوة محيطة بها ، عن ذكرى : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى ، أولياء : أى معبودات يقونهم بأسى ، أعتدنا : أى هيأنا ، نزلا : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم ، ولقائه : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك ، الهزؤ : السخرية والاحتقار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ فى الصور لجمع الخلائق وقيامهم من قبورهم بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم ، ويجمعهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء ـ قفى على ذلك ببيان أنه إذ ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم ، من قبل أنهم تعامَوْا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم

من عذابه ، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم ، وكل ذلك وهم وخيال فلا فائدة منه فى ذلك اليوم ، ولا نقيم له إذ ذاك وزنا .

روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه ، وحنى الجبهة وأصغى الأذن ، متى يؤمر أن ينفخ ؟ ولو أن أهل منى اجتمعوا على القرن أن يقلوه من الأرض ما قدروا عليه ، قال : فأبلس (بئس وتحير) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليهم ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجىء .

الإيضاح

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أى وأبرزنا جهنم يوم ينفخ فى الصور وأظهرناها للكافرين بالله حتى يروا أهوالها وشديد نكالها ويسمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وفى هذا تعجيل للهمّ والحزن ومعرفة أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

ثم بين أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء فقال :

(الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) أى إن هذا العذاب إنما نالهم من جزاء أنهم كانوا لا ينظرون فى آيات الله فيتفكروا فيها ولا يتأملون حججه فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم وينقادوا لأمره ونهيه ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذى ذكرهم به ، وبيانه الذى بيّنه لهم فى آى كتابه ، فتغافلوا وتعامَوْا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

ذاك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان وما نصبه لهم من الحبائل ، طبع الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم بين أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لايجديهم نفعا فقال :

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) أى أفظن الذين كفروا بى واتخذوا عبادى الذين هم فى قبضتى وتحت سلطانى كالملائكة وعيسى ـ معبودات من دونى ـ أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا أو يرفع عنهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

وخلاصة هذا — أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم ، وأنه لايغضبنى ـ كلا .

ثم أكد هذا الإنكار بقوله :

(إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أى إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضا عما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زادا ليوم المعاد .

والخلاصة — إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العُدّة والذُّخْر ـ عُدة هى جهنم و بئس المصير .

وفى ذلك تهكم بهم وتحطئة لهم فى حسبانهم ذلك ، و إيماء إلى أن لهم وراء جهنم ألوانا أخرى من العذاب ، وما جهنم إلا أنموذج منه .

ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال :

(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل الكتابين اليهود والنصارى : هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبغون به ثوابا وفضلا فنالوا به هلاكا و بوارا كالمشترى سلعة يرجو بها ربحا فخاب رجاؤه وخسر بيعه ووكس فى الذى رجا فضله .

وخلاصة ذلك — إنهم عملوا بغير ما أمرهم به الله ، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له ، وأنهم يحسنون صنعا ، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين ، وفى ضلال مبين ، وأن سعيهم الذى سعوا فى الدنيا ذهب هباء ، فلم يجدهم نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين السبب فى بطلان سعيهم فقال :

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى إن هؤلاء الأخسرين أعمالا هم الذين كفروا بالدلائل المنبثة فى الآفاق والأنفس التى تدعو إلى توحيده ، وكفروا بالبعث والحساب وما يتبع ذلك من أمور الآخرة ، ومن ثم حبطت أعمالهم ، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها ، بل لهم منها عذاب وخزى طويل ، ولا تثقل بها موازينهم ، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة وليس لهم منها شىء .

ثم بين مآلهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال :

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم رسل الله ومعجزتهم التى أظهرها على أيديهم هزؤا وسخرية ، فلم يكتفوا بالكفر بها ، بل ارتكبوا هذه الحماقة التى هى أعظم أنواع الاحتقار .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) .

شرح المفردات

الفردوس : البستان بالرومية . وقال السدى : إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا ، حولا : أى تحولا ، والمداد : مايمد به الشىء ؛ واختص بما تمد به الدواة من الحبر ،

كلمات ربى : معلوماته غير المتناهية ، والرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة ، ولقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكفار من العذاب فى جهنم ، وأن ذلك كان جزاء بما كفروا بربهم واستهزائهم برسله وآياته ـ أردف ذلك بما يرغب المؤمنين فى العمل الصالح من جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا على إنابتهم إلى ربهم وإخباتهم إليه ، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذى ذكر فيه الدلائل والبينات على وحدانيته وإرسال الرسل والبعث والجزاء مما يدل على عظيم فضله ، ثم أعقب ذلك ببيان أن العمل لايتقبل إلا إذا صاحبه أمران : أن يكون خالصا لوجهه تعالى ، وأن يكون مبرأ من الشرك الخفىّ والجلىّ .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمّع سمّع الله به ، ومن يرائى يرائى اللهُ به » أى من عمل عملا مراءاة للناس ، وليشتهر به شهّره الله يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه » .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أى إن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء المثوبة من ربهم ـ لهم بساتين الفردوس فى أعلى الجنة وأوسطها منزلا .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تفجر الأنهار » .

(خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) أى لا يبغون عنها تحولا إلى غيرها ، قال ابن عباس : لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

وخلاصة هذا — إنه لا مكان أعز منها عندهم ، ولا أرفع شأنا حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، وتطمح إليه أبصارهم ، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) أى قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى وعلومه لنفد ماء البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات ، ولو مددنا ماء البحر بمثل مافيه من الماء مددا وعونا ، لأن مجموع المتناهيين متناه ، وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها ، والمتناهى لا يفى البتة بغير المتناهى ، ونحو الآية قوله « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ » .

روى أن اليهود قالوا يامحمد : تزعم أننا قد أوتينا الحكمة ، وفى كتابك « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » يريدون بذلك الاعتراض بوجود التناقض فأنزل الله الآية ردا عليهم .

وقد أثبت العلم الحديث مايتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية مالا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر .

قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة (بنسلفانيا) بأمريكا فى ٧ من مارث ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

(١) إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

(٢) إن الإنسان لم يعش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .

(٣) إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريبا ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .

(٤) الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته على وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .

(٥) مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل فى علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض ، و بعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض فى الماضى .

(٦) الأجرام التى حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .

(٧) الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها كرية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .

(٨) الإشارات اللاسلكية تنبعث من جهاز لاسلكى كبير تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدإ سفرنا .

(٩) إننا لو صنعنا منظارا قويا (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التى كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .

(١٠) إن الإنسان اليوم طفل فى العلوم ، وربما علم فى المستقبل ما لا يتخيله الآن .

(١١) إن سرعة النور فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله فى ذلك

الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شيء واحد فى جوهرها ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون سنة ، أى إن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية ، فما أبعد النسبة بين سبع ثانية ، و بين مائة ألف مليون سنة .

إلا أن الأرقام لاتقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروى .

(١٢) الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروى ، وهى واحدة من أسرة من أسر الكائنات التى فى الفضاء الكروى التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة ، وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٣) إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوءها أو لاتزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

(١٤) يقول (هويل) إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريقا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة مايكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفرا ، وهذا العدد يغطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

(١٥) أضعف النجوم المعروفة هى نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءا من نور الشمس ، ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس .

وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض ، وأكبر النجوم الجوزاء ، وهى أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباحب) .

(١٦) إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصانا من كل بوصة مربعة و بعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشعّ نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٧) إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، ففى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٨) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين الملايين السنين دون أن تنطفىء .

(١٩) عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة اه .

هذه آراء علماء الفلك فى العصر الحاضر استنبطوها بالحساب تارة ، وبوجه التقريب تارة أخرى ، مما يرشد إلى تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) الآية .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شىء منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال : « وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) أى قل لهم أيها الرسول : إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك ، ولا أدعى الإحاطة بكلمات الله جلت

قدرته ، ولا علم لى إلا ما علمنى ربى ، وأن الله أوحى إلىّ أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ـ هو معبود واحد لاثانى له ولا شريك .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى فمن كان يطمع فى ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة ، وليفرد له الربوبية ولا يشرك به سواه ، لا إشراكا جليا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكا خفيا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح فى الحديث ، وروى مستفيضا فى الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لايقبل ، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك » نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، لايراد به رضا أحد من خلقه .

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

(١) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لاعوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .

(٢) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .

(٣) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما فى ملكوت السموات والأرض .

(٤) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .

(٥) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .

(٦) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .

(٧) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

(٨) ضرب المثل لحال الدنيا .

(٩) عرض كتاب المرء عليه فى الآخرة وخوف المجرمين منه .

(١٠) عداوة إبليس لآدم و بنيه .

(١١) قصص موسى والخضر .

(١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صنعه ذو القرنين .

(١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة فى الآخرة .

(١٤) ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .

(١٥) علوم الله تعالى لانهاية لها .

obeikandl.com